الكتاب الثلاثون

إصلاح الفكر الإسلامي

مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر

أ.د. طه جابر العلواني

المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٥، ٢٠٠٩، ١٨٩ ص

تحليل وعرض د. حسان عبد الله حسان

السيرة الذاتية للمؤلف والتكوين العلمي والإنتاج الفكري:

ولد طه جابر العلواني في محافظة الأنبار بالعراق عام ١٩٣٥، وقد حصل على شهادتي المدرسة الابتدائية والمدرسة الآصفية الدينية في الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٥٢، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة وحصل على شهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٥٣، كما حصل على درجة الليسانس من كلية الشريعة والقانون عام ١٩٥٩، ثم درجة الماجستير عام ١٩٦٨، والدكتوراه عام١٩٧٣ في تخصص «أصول الفقه» بجامعة الأزهر.

نلاحظ من هذه السيرة الذاتية للمؤلف في الفترة الأولى من حياته أنها مثلت الأساس العلمي لتكوينه الفكري في الفترة التالية من حياته، وأن الدرس الديني «المحض» وبالتحديد «الدرس الفقهي» الأزهري المصري قد لعب دورًا مهمًا في هذا التكوين الفكري حيث شكلت دراسته في كلية «الشريعة والقانون» -والتي قضى بها ما يقرب من عشرين عامًا- أساسًا فكريًا فقهيًا لعقل المؤلف، وقد ظهر هذا التأثير واضحًا فيما أنتجه بعد ذلك وفيما طرحه من أفكار ساهمت في المشهد الفكري الإسلامي المعاصر، وفيما شغله من مناصب علمية في فترات من حياته.

ومن أبرز إنتاجه الفكري في الميدان الفقهي كتاب: المحصول في علم أصول

الفقه لفخر الدين الرازي: تحقيق ودراسة، الاجتهاد والتقليد والإسلام، أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، في فقه الأقليات المسلمة، مقاصد الشريعة، نحو التجديد والاجتهاد جزآن. أما المناصب العلمية التي شغلها في إطار الدرس الفقهي فهي: عضوية «المجمع الفقهي الدولي بجدة «منظمة المؤتمر الإسلامي»، ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية ١٩٨٨ – ٢٠٠٥، وأستاذ كرسي الإمام الشافعي للفقه وأصوله والفقه المقارن بجامعة قرطبة، فيرجينيا من عام ١٩٩٧، وأستاذ الفقه والأصول بكلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود في الفترة من ١٩٧٥ -١٩٨٤.

أما المرحلة الفكرية الثانية من حياة طه جابر العلواني فيهتم بالشأن المؤسسي وذلك بالمشاركة في تأسيس «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» عام ١٩٨١ وقد تولى رئاسة المعهد في الفترة من ١٩٨٦ – ١٩٩٦. وهنا يبدأ التحول الفكري الثاني للمؤلف حيث انشغل بالتنظير لمشروع «إسلامية المعرفة» الذي تأسس من أجله المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وأصبح من أبرز منظريه وحاول تسخير كل إمكاناته الدراسية والبحثية في خدمة هذا المشروع الذي ساهم به المعهد في المشروع الإصلاحي للأمة.

وفى ضوء هذا التحول الفكري والتنظيري اهتم بدرس «إسلامية المعرفة» فكتب: ابن تيمية وإسلامية المعرفة، لماذا إسلامية المعرفة؟، وإسلامية المعرفة فكرًا ومشروعًا، وتساؤلات حول إسلامية المعرفة، ومنهجية القرآن المعرفية وأسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، والجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، وإسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، ومقدمة في إسلامية المعرفة. هذه الكتابات وغيرها مما كتبه منظرًا لمشروع «إسلامية المعرفة» للمعهد كانت تمثل المرحلة التبشيرية بالفكرة والتي حاولت إرساء عديد من القواعد والمفاهيم الخاصة

بهذا المشروع وتحديد الإطار العام الذي يعمل من خلاله. كذلك محاولة رده على بعض الشبهات التي أحاطت بالفكرة في نشأتها (شبهات من حيث المبدأ والمنطلق، ومن حيث المنهج والتطبيق). وقد شغلت كتابات طه العلواني حيزًا أساسيًا لكل من أراد أن يطالع أو يتعرف على ماهية مشروع «إسلامية المعرفة»، بالإضافة إلى الكتابات الأولى للمؤسس الأول إسماعيل راجي الفاروقي.

وفى المرحلة الفكرية الثالثة حاول تقديم طروحاته الفكرية والتنظيرية في مشروع «إسلامية المعرفة» ضمن تحولات الفكر الإسلامي لا باعتبارها مشروعًا منفصلًا أو موازيًا، ولكن باعتبارها جزءًا من المشروع الإصلاحي للأمة، وهنا ظهرت عناوين لإنتاجه الفكري تحمل عنوان «الفكر الإسلامي» وموضوعاته التي طرحت في المشهد الإصلاحي خلال القرن الأخير متضمنة معالم المشروع الإصلاحي لـ«إسلامية المعرفة».

ومن بين ما كتبه طه العلواني في هذه المرحلة: «الأزمة الفكرية ومناهج التغيير في الواقع العربي»، و«العقل وموقعه في المنهجية الإسلامية»، و«المشهد الثقافي العربي»، و «المقاصد الشرعية العليا الحاكمة: التوحيد، التزكية، العمران»، و«منهجية التعامل مع القرآن»، و«الفكر الإسلامي في مواجهة العولمة»، و«حول مقولة الإسلام والغرب»، و«خواطر في الأزمة الفكرية» و«المأزق الحضاري للأمة الإسلامية»، و«الأزمة الفكرية المعاصرة.. تشخيص ومقترحات علاج»، «إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات.. ورقة عمل»، و«إصلاح الفكر الإسلامي مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر» وهو الكتاب موضع الدراسة الحالية.

كما كان هناك - أيضًا - حورًا بارزًا للإنتاج الفكري للمؤلف وهو ما يتصل بـ«الدرس القرآني» حيث شغل جانبًا في إسهاماته الفكرية والعلمية في محاولة منه

لتحديد معالم لمنهجية التكامل مع القرآن الكريم ويصف طه العلواني هذا التوجه الفكري نحو تأسيس للمشروع القرآني له بأنه «مشروع لابد له من جهود بحثية متنوعة ومتضافرة؛ ليؤتى ثماره وينقذ العلم وتراث الإنسانية من الأزمات التي دخلت إليهم نتيجة اقتصار البشرية على التحاور مع الطبيعة وحدها، وتجاهل خالق الطبيعة والإنسان وموجدهما».

وتشير رانيا شعبان - باحثة في الدراسات الإسلامية في بحث لها بعنوان «المشروع القرآني للدكتور طه جابر العلواني» بأن هناك سؤالين أساسيين مثَّلا العمود الفقري لهذا المشروع وهما: كيف نستحضر حاكمية القرآن؟ وكيف يتعاطى النسبي (الإنسان) مع المطلق (القرآن)، هذا بالطبع داخل المشروع المعرفي الإسلامي وليس في المشروع السياسي الذي ارتبطت كلمة «الحاكمية» به.

وتضيف - أيضًا - بأن العلواني - تبنى الخط النقدي للعلوم الإسلامية التي بنيت حول الخطاب القرآني باعتبار أن المنهجية التي تأسست عليها تلك العلوم والمعارف متعارضة مع منهجية القرآن فعانت من الفصام بين الاعتقاد النظري بأن الخطاب القرآني خطاب إلهي معجز ومهيمن على ما سواه، وبين الاستحضار الفعلي لهذا الاعتقاد عند التعاطي معه.

فالمطلوب كما يرى العلواني في هذا المشروع القرآني - كما يسميه- بناء منهجية للتعامل مع القرآن مستمدة من القرآن ذاته - فللقرآن منهجه ومنطقه - ومن ثم يمكن استخلاص منهجية معرفية قرآنية كونية تستوعب الكون وحركة الإنسان فيه.

ومن كتابات العلواني في محور الاهتمام القرآني: «لسان القرآن والأمة القطب»، «نحو موقف قرآني من النسخ»، «الوحدة القرآنية البنائية للقرآن المجيد»، «أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها»، «الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون»، «معالم في المنهج القرآني».

ثم عرج العلواني -أيضًا- نحو موضوع الوحدة الإسلامية لاسيما البحث في عوامل التفرق والتمزق التي قامت بسبب الخلافات السياسية ثم بلورت ذلك فقهيًا ومذهبيًا لدرجة تصور معها البعض إن الخلاف الفقهي أو المذهبي بين المسلمين هو السبب في التطاحن الذي دار بينهم ويظهر بين فينة وأخرى فكتب «أدب الاختلاف في الإسلام» والذي طبع في كتاب الأمة عام ١٩٨٦ ثم أعاد المعهد العالمي للفكر الإسلامي طبعه مرة أخرى عام ١٩٩٢ وقد وصل عام ٢٠٠٠إلى الطبعة السادسة للمعهد بالإضافة إلى ترجمته إلى ثلاث لغات.وقد طرح فيه العلواني منهجًا لإدارة الخلاف بين المسلمين مستمد من القرآن والسنة والسيرة النبوية بغرض رأب الصدع وتحقيق وعى الأمة بضرورة وحدتها ، ويشغل حاليًا عضوية اللجنة التنفيذية لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية بطهران وساهم في العديد من المؤتمرات التي انعقدت لهذا الغرض.

(٢) **الكتاب وتطوره الموضوعاتي** :

هذا الكتاب هو عبارة عن تطوير لورقة العمل التي نشرت تحت عنوان «إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات» سلسلة إسلامية المعرفة (٩) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٩٩١، ٩٨ص، والذي تناول فيه عرض لمبررات إسلامية المعرفة ودوافع عرض هذه القضية، في رد بالتأكيد على الهجوم والنقد الذي تعرض له مشروع «إسلامية المعرفة» من قبل بعض الأقلام والكتاب، والمحتوى الذي غلب على هذا الكتاب يتعلق بالمخاطبين في الواقع الإسلامي وأنماط وتصنيفات معرفية وثقافية لهم.

ثم تطورت هذه الورقة وأضيف إليها موضوعات تتصل بـ المشروع الإسلامي وعوائق الإصلاح، ومظاهر التأزم الفكري في الأمة، وطرح رؤية ومعالم كبرى (عامة) لمشروع إصلاح مناهج الفكر، وقد صدر الكتاب تحت عنوانه الحالي

«إصلاح الفكر الإسلامي» مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر «في سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة الكتاب» (١٢) ١٩٩٨. طبع مؤسسة الأعراف – قم – إيران، ١٨٩ ص. ثم أعاد المعهد العالمي للفكر الإسلامي طبع الكتاب دون المقدمة التي كتبها المؤلف في طبعته الأولى والتي استبدلت بتصدير للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بتقديم لكل من عمر عبيد حسنه وعبد المجيد النجار، وبنفس عدد صفحات الكتاب في طبعته الأولى، ١٨٩ ص.

(٣) **الكتاب: الخطاب الثالث لمشروع إسلامية المعرفة**

يمكن اعتبار هذا الكتاب هو الخطاب الثالث الذي يتناول «إسلامية المعرفة» للأمة، والكتاب الأول هو ما كتبه إسماعيل الفاروقي – الرئيس الأول للمعهد العالمي للفكر الإسلامي – وقد صدر مترجمًا تحت عنوان «أسلمة المعرفة.. المبادئ العامة وخطة العمل»، عام ١٩٨٤ – الكويت، وهو الخطاب الأول الذي عبر عن مشروع إسلامية المعرفة» في نسختها الأولى والتي من أجلها تأسس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وكان إسهامًا مباشرًا من المؤلف وثمرة للحلقة النقاشية حول «أسلمة المعرفة» تحت رعاية «الجامعة الإسلامية» في إسلام آباد والمعهد، في مدينة إسلام أباد عام ١٩٨٢.

وقد تناول هذا الكتاب عدة عناصر أهمها: تحديد مشكلة الأمة على المستوى السياسي والاقتصادي والديني والثقافي وأسباب هذه المشكلة والتي حددها في «نظام التعليم» القائم في بلدان العالم الإسلامي، ثم طرح الواجب المطلوب وهو إصلاح «نظام التعليم» من خلال معالجة جوانب القصور ثم باعتماده على المنهجية الإسلامية وقدم في الجزء الرابع من الكتاب ما أسماه المؤلف خطة العمل أو الخطوات الضرورية المؤدية إلى «أسلمة المعرفة».

وفى عام ١٩٨٦ ظهر كتاب «أسلمة المعرفة المبادئ العامة – خطة العمل –

obeikan.com

الإنجازات – المؤلف / إسماعيل الفاروقي، عبد الحميد أبو سليمان.و ما قدمه هذا الكتاب يمكن أن نطلق عليه «الخطاب الثاني لإسلامية المعرفة» والإضافات المهمة في هذا الكتاب هو ما طرح تحت عنوان: إيضاحات لابد منها، الإسلامية، وإسلامية المعرفة ،وأولويات عمل الأمة في إنجاز خطة إسلامية المعرفة. وهذه الإيضاحات لم تذكر في كتاب الفاروقي رغم ضرورتها آنذاك.

ويُعد الكتاب الذي بين أيدينا «إصلاح الفكر الإسلامي مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر» لطه جابر العلواني الخطاب الثالث لمشروع «إسلامية المعرفة» والتي تأسس من أجلها – كما أشرنا المعهد العالمي للفكر الإسلامي – وقد شغل طه جابر العلواني رئاسة المعهد في الفترة من ١٩٨٦ – ١٩٩٦.

وقد تضمن هذا الكتاب محاولة لتشخيص الداء الذي تعانى منه «الأمة» والذي خلص إلى أنه داء فكرى، والعلاج يتمثل في إصلاح مناهج الفكر من خلال إسلامية المعرفة وهو البرنامج أو المحاولة التي حاول العلواني تقديمها في هذا الكتاب. أو كما وصفه عبد المجيد النجار في تقديمه بأن هذا الكتاب «وضع خطة عملية لتنفيذ الإصلاح الفكري، متوخيًا المسالك المتاحة، ومتحسبًا للعراقيل المعطِّلة للإصلاح».

ويتكون الكتاب من خمسة فصول، الفصل الأول يتناول أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر: دوافع الأزمة وعقلية التأزيم ،الفصل الثاني يتضمن إسهامات المؤلف في إصلاح مناهج الفكر الإسلامي ،الفصل الرابع يقدم المؤلف فيه المعالم الكبرى لمشروع إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة ، أما الفصل الخامس فيأتي تحت عنوان «الخطاب والمخاطب» في معالجة لمواصفات الخطاب المطلوب وشروطه وأقسامه.

(٤) الأزمة الحضارية:

يؤكد طه العلواني في تصوره للأزمة الحضارية على البعد الفكري أو «الأزمة الفكرية» التي تعانى منها الأمة منذ عصور التراجع الحضاري، حيث تتواجد القيم التي تعهد الله بحفظها في الكتاب والسنة، فقط فقدنا المنهج الفكري للتعامل مع مصدر هذه القيم والواقع الذي نعيشه «أو بتعبير آخر: ليست المشكلة التي يعانى منها العقل المسلم، مشكلة قيم، أو أزمة قيم، وإنما المشكلة كل المشكلة في العجز مع التعامل مع القيم...فالانحسار الحضاري الذي نعانى منه هو أزمة فكر أولًا وقبل كل شيء، لأن النسق الفكري للحضارة الإسلامية وإسلامية المعارف، قد توقف عند حدود العقول السابقة».

وبناء على هذا التصور الفكري للأزمة - وهو التصور الذي قام من أجله المعهد العالمي للفكر الإسلامي - والذي يؤكد على الجانب الفكري للأزمة الحضارية جاء نهج الإصلاح المقترح كما يشير إليه المؤلف وهو «إصلاح المناهج العقلية، وتنقية الموارد الثقافية في ضوء الكتاب والسنة للاعتقاد أن ذلك يشكل الرحم والمحضن الذي تتشكل في داخله الأجنة الحضارية القادرة على استئناف الحياة الإسلامية وبناء الحضارة الإسلامية».

وهذا النهج يتطابق مع الهدف الثالث الذي يعمل له المعهد وهو: إصلاح مناهج الفكر الإسلامي لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

(٥) معالجة الأزمة لا مظاهرها:

يرى المؤلف أن حركات التجديد والإصلاح انشغلت بمعالجة مظاهر الأزمة وانعكاساتها المباشرة، أما جذورها ومنابعها فلم تأخذ حظها من البحث والدراسة ثم المعالجة، حيث اهتمت حركات التجديد بمجالين أساسيين هما: حفظ العقيدة،

وتعبئة الأمة للمواجهة السياسية. وهنا لابد من إدراك القصور الذي لحق بالمشروع الإسلامي ووجه هذا القصور تحديدًا هو أن البعد الفكري في هذا التجديد لم يأخذ الاهتمام الذي يستحقه، وذلك في نفس الوقت من أسباب عجزه عن بلوغ الهدف واستمرار الأمراض الفكرية الفتاكة في الساحة مثل تحكم عقلية التقليد الجماعي، والغفلة عن السنن، والتغافل عن عالمية الإسلام أو إساءة فهمها.

(٦) لماذا الكتاب؟:

يحدد العلواني دوافعه ودواعي تأليفه للكتاب ومنها:

- العناية بالبعد الفكري وإسلامية المعرفة، والتي لم تحظ بالاهتمام المطلوب، ولم تبلغ مستوى الانشغال بها في حياة المسلمين على الرغم من أهميتها، وبيان ودراسة مواطن الخلل وتقويم خطوات العمل.

- حاجة المشروع الحضاري الإسلامي المنشود إلى خطاب إسلامي معاصر يضع قضية إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة موضوعها الملائم.

- مراعاة احتياجات المخاطَب ودراستها لتحقيق عالمية وحضارية الخطاب الإسلامي.

ولقد مثلت هذه الدوافع والدواعي المحاور الأساسية للكتاب من التأكيد على محور إسلامية المعرفة، وطرح أفكار حول قضية إصلاح مناهج الفكر، وعرض لمستويات وأنماط المخاطبين والخطاب الذي ينبغي أن يقدم لهم ومعالمه الأساسية.

(٧) وظائف «إسلامية المعرفة» نظرة تجديدية:

يقدم العلواني «إسلامية المعرفة» في ضوء نظرة تجديدية في الدور والمكانة والوظائف، فهي التي تؤكد على حقيقة التجديد والتي تقوم على إعادة تشكيل العقل المسلم ووصل ما انقطع بينه وبين كتاب الله، باعتباره المصدر المنشئ الوحيد مع الكون للفكر والمعرفة والعقيدة والشريعة والمنهاج. وكذلك وصل ما انقطع بينه

وبين سنة رسول الله ﷺ مع سائر معطيات عصر التنزيل والنبوة.

ومن هنا كانت إسلامية المعرفة قاعدة من أهم قواعد تجديد الدين، وإعادة بناء الأمة القطب، وإنتاج المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر؛ إذ أن إسلامية المعرفة تمثل البعد الغائب عن مشاريع التجديد - على حد قول المؤلف - أو البعد الذي لم ينل من عناية مشاريع التجديد والإصلاح ما يستحقه.

ويشير المؤلف - أيضًا -إلى مهمة مزدوجة تحاول أن تقوم بها إسلامية المعرفة، فهي تعمل على القضاء على حالة هجر المسلمين للقرآن الكريم، وإيجاد الوعي لدى الأمة المسلمة بخصائصه المنهجية والمعرفية، لتتعلم كيف تقرؤه على مستوى عصرها، وكيف تجمع بين قراءته وقراءة الكون لتحافظ على نفسها وكيانها من عمليات التذويب التي تمارسها المركزية الغربية.

إن الدعوة التي تقوم على افتراض افتقاد البعد الفكري في مشاريع التجديد والإصلاح- والتي يتبناها المؤلف- والتي ربما تكون صادقة إذا كان المقصود بها حركات الإصلاح السياسي؛ بل حتى هذه أيضًا قدمت إصلاحًا معرفيًا فيما يتصل بالنظام السياسي المعاصر وتقديم أطروحات معرفية وفكرية تجادل بها النظم السياسية المعاصرة، أما الأغلب من حركات التجديد ومشاريعه النهضوية - وهذا المسمى يحتاج إلى ضبط مصطلحي - فإنها قدمت عناية واهتمامًا ملحوظًا فيما يتعلق بالجانب الفكري والمعرفي نذكر مثلًا: محمد عبده، علي شريعتي، مرتضى مطهري، محمد حسين النائيني، محمد إقبال، مصطفى صبري، مصطفى الغلاييني، مصطفى عبد الرازق، محمد حسين الطباطبائي، ومحمد باقر الصدر، وكذلك جهود عبد الحميد بن باديس التربوية، ومالك بن بني، وغيرهم الكثير ممن مثل الإصلاح المعرفي بُعدًا أساسيًا في مشاريعهم الإصلاحية.

لا شك أن دعوى المؤلف بغياب «الإصلاح الفكري» تحتاج إلى دراسة وتأمل

من جانب الباحثين في عناصر المشروع الإصلاحي الذي قدمته الأمة على مستوى الأفراد، والجماعات، بل والمذاهب الفقهية والفرق الإسلامية التي طورت نفسها وأفكارها للتعايش مع الجسد الإسلامي وكلها اعتمدت على «الإصلاح الفكري» وشكل لديها قاعدة ملهمة لإرساء قواعدها الوجودية المعاصرة. بل إن أكبر الحركات الإسلامية- الإخوان المسلمون- والتي بدأ نشاطها (بمواجهة الاستعمار وامتد إلى الصراع السياسي مع النظم الحاكمة) برنامجها الأساسي فكري تربوي يهدف إلى إصلاح فكر الأمة كما يظهر من رسائل حسن البنا.

إن القصور الذي يمكن أن نراه هو عدم القدرة على اللقاء بالنظام السياسي- الذي انفصل عن الأمة منذ عهد الفتنة الكبرى- ليوظف كل هذه الإرادات الفكرية والمعرفية في مشروع نهضة متكامل، والقصور- أيضاً- في الحالة المعاصرة يتمثل في ذلك الانفصال بين إرادة جموع الأمة وبين الأنظمة السياسية التي تشكلت وفق رؤى الاستعمار وارتبطت به حتى اليوم.

(٨) **عقلية التأزيم وتوالد الأزمة**:

ينتقل المؤلف إلى متابعة ما يترتب على الأزمة الفكرية والتي وصفها بالداء الخطير، والمرض الذي يشتد خطره أحيانًا فتصبح أعصى على الحل، إلى حد أنها تحيل الحلول نفسها إلى أزمات جديدة تضيفها إلى رصيدها، ثم يرصد عددًا من الظواهر المرضية التي أصابت العقل الإسلامي نتيجة ما أصابه من الجمود والتقليد ومن هذه الظواهر:

- توهم رعاية السنة: ومضمون هذه الظاهرة المرضية يتمثل في سيادة الجدل في الشكليات والحرفيات المتعلقة بتلك الجهود التي ساهمت في تغييب المقاصد الأساسية للسنة، وتفاقم ظاهرة التناصر للمذهب، وتجاوز مصالح المجتمع، وتعزيز نزعات التقليد، ومحاربة محاولات الاجتهاد.

- توهم الدفاع عن العقيدة: في حين نشأ علم الكلام ليكون حلًا وجزءًا من عملية الإصلاح الفكري والعقدي، والدفاع عن العقيدة الإسلامية وتثبيت قواعدها، إلا أنه من خلال «عقلية التأزيم» - التي أشار إليها المؤلف - تحول إلى جزء من الأزمة الفكرية التي تعانى منها الأمة، وذلك بانحراف هذا العلم ومنهجه بتوجيه اهتمام الفاعلين في المجتمع إلى كثير من القضايا التي شاركت بنصيب وافر في تكريس أزمة الأمة الفكرية وتبديد الكثير من طاقاتها، وتحجيم خطابها والحد من تأثيره، مثل قضية «خلق القرآن» و«الفعل الإنساني» و«العقل والنقل» وغيرها.

- توهم العناية بالفقه: وأبرز مظاهرها تحول آراء وأقوال الفقهاء لتكون شريعة بجانب الشريعة، ويصبح الفقه البشرى - الذي هو اجتهادات العلماء- هو الشريعة ويكون شريعة ذلك الكم الهائل من الأقوال والفتاوى والشروح والتعليقات والحواشي، والتذييلات والآراء الشخصية والأمور الافتراضية والواقعية سواء تعلقت بوقائع خاصة أم عامة، ليتحول كل ذلك الإنتاج البشرى إلى شرع لازم في كل زمان ومكان.

وهذا هو ما أحدثته عقلية التأزيم والتقليد التي حولت حركة الفقه المتجددة من حركة عقلية فاقهة تدور مع الحوادث والنوازل وفقه الواقع لتقديم الحلول لمشكلاته إلى قيد يمنع العقل المسلم ويحد من حركته.

- توهم إعادة الاتصال بين النظرية والتطبيق: ويقصد به المؤلف حالة «التصوف» والتي دخلت إلى أبواب الانحراف وأصبح دعوة للعزلة - بعد أن كان دعوة للتواصل بين النظر والواقع - والانصراف نحو القضايا الفردية، وإهمال القضايا الجماعية وقضايا الأمة، والإغراق في نوع آخر من الشكليات والسلبيات فأضاف للأمة أزمة ذات أبعاد جديدة، وللعقل المسلم شواغل من نوع آخر.

ونضيف - أيضًا - لما قدمه المؤلف من تأزيمات عقلية وآثارها في الفكر

الإسلامي وفى أزمة الأمة على السواء، أزمة التكفير والتي لاقت رواجًا كبيرًا في ظل ازدهار دولة النفط العربية والخوف على المصالح المادية الدنيوية القريبة، فظهرت اتجاهات للتكفير للمخالفين في المذهب تارة وفي الفكر تارة أخرى، وكذلك استدعاء فتاوى تكفيرية من التاريخ الإسلامي واستحضارها إلى الواقع المعاصر دون النظر إلى سياقات هذه الفتاوى وواقعها الاجتماعي. وقد تحولت هذه الأزمة «أزمة التكفير» إلى ظاهرة حذر من آثارها يوسف القرضاوي في رسالته «ظاهرة الغلو في التكفير» محذرًا إلى أبعادها ومخاطرها العقدية والاجتماعية والفكرية.

(٩) المعالم الكبرى لمشروع إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة:

يحدد المؤلف الغاية النهائية للمشروع بالسعي إلى «إعداد وتقديم الأسس الفكرية والمنهجية اللازمة لحركة الأمة لبناء «المنظومة الفكرية البديلة» التي تغذى حركة الأمة بالزاد الفكري الذي تفتقر إليه وتعمل على إعادة تكوين العقل المسلم، وتشكيل بنيته وفقًا للتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، مستمدًا من القرآن والسنة والتدبر لسنن الكون وقوانين الوجود» .

(١٠) المبادئ العامة للمشروع:

وهذه المبادئ هي التي حُددت في الخطوات الأولى من قيام مشروع إسلامية المعرفة وهي:

- التوحيد: باعتباره المبدأ الأول للإسلام وأهم القيم الحاكمة.
- وحدة الخلق: لأن وحدانية الخالق تستلزم بالضرورة العقلية وحدة خلقه.
- وحدة الحقيقة: فلا تعارض ولا تفاوت بين حقائق الوحي وحقائق الواقع.
- وحدة الإنسانية: الناس خلق واحد لا يتفاضلون إلا بالتقوى.
- تكامل الوحي والعقل: فلا تناقض ولا تعارض بين معطيات الكتاب المسطور والكتاب المنشور.

- الشمولية في المنهج والوسائل: لأن الإسلام دين يشمل جميع جوانب الحياة.

(١١) هدف المشروع:

يشير العلواني إلى الهدف العام لمشروع إسلامية المعرفة وإصلاح مناهج الفكر بأنه «إيجاد العقل المسلم المستنير القادر على ممارسة دوره في الاجتهاد، والتجديد والعمران الإنساني لتأهيل المسلم لدور الاستخلاف، والقيام بحق التسخير، والوصول إلى هدف التمكين والقيام بحق الأمانة، ولهذا الهدف سبيلان، انطلاقًا من القرآن ومنهجية المعرفة، ومن السنة باعتبارها تحمل منهجية تنزيل قيم القرآن في واقع معين، ومن الكون باعتباره المصدر الآخر للمعرفة مع الوحي. ومن هذا الهدف الغائي يتفرع هدفان: الأول،إعادة بناء منظومة الفكر لدى المسلمين والتي أَطلق عليها من قبل «المنظومة البديلة». الهدف الثاني، بناء النسق المعرفي والثقافي الإسلامي الشامل انطلاقًا مما ذكر في الهدف الغائي.

(١٢) المحاور الخمسة الأساسية للمشروع:

المحور الأول: الفكر:

ويرى المؤلف في هذا المحور أننا إذا أدركنا معنى الفكر وحقيقته فإن أمامنا مهتمين: الأولى تحديد معالم الفكر الإسلامي ومناهجه، والثانية معالجة قضايا الفكر الإسلامي ومعضلاته بالاعتماد على المنهجية المعرفية القرآنية التي تجمع بين قراءة الوحي وقراءة الوجود، أو منهج الجمع بين القراءتين.

المحور الثاني: المنهج:

يعرف المؤلف في هذا المحور «إسلامية المعرفة» في ضوء نظرة منهجية، بأنها «منهج معرفي محدد المعالم واضح القسمات ويمثل بديلًا للمادية والوضعية المتجاهلة لله والغيب من ناحية كما يمثل بديلًا عن اللاهوتية والكهنوتية المستلبة للإنسان والطبيعة من ناحية أخرى.

كما يشير - أيضًا - إلى قواعد الإنتاج المعرفي في إطار ومنظور إسلامية المعرفة

والتي ينبغي أن تُرسى على عدة دعائم هي:

- إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية القائمة على مقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم.

- إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المنهجية الإسلامية على ضوء «المنهجية المعرفية القرآنية».

- بناء منهج للتعامل مع القرآن من خلال هذه الرؤية المنهجية وباعتباره مصدرًا للمنهاج والشرعة والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني.

- بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية - أيضًا - من خلال تلك الرؤية المنهجية. وباعتبار أن السنة كذلك مصدر لبيان المنهج والشرعة والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني.

- إعادة دراسة تراثنا الإسلامي وفهمه وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية تخرجنا من الدوائر الثلاث التي تحكم أساليب تعاملنا معه وهي: الرفض المطلق، القبول المطلق، التلفيق الانتقائي العشوائي.

- بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر.

المحور الثالث: العلم والمعرفة:

في ضوء النزاع والجدل حول مفهوم «العلم» يرى المؤلف أن «إسلامية المعرفة» تستطيع أن تنهى ذلك النزاع وهذا الجدل في العقل الإسلامي وذلك من خلال الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الوجود، فأسلمة المعرفة تعنى أسلمة العلوم التطبيقية والقواعد العلمية، بفهم التماثل بين سنن هذه العلوم وقوانينها وسنن الوجود وقوانينه، وتوجيه هذه العلوم الوجهة الإسلامية، وتوظيفها لتحقيق المقاصد الإلهية.

المحور الرابع: الثقافة والحضارة:

بعد مناقشته لمفهومي الثقافة والحضارة يصل المؤلف إلى نتيجة مؤداها: أنه لا يمكن منطقيًا أن تكون هناك حضارة واحدة، تتعدد روافدها إلا إذا كانت هذه الحضارة هي أفضل نموذج بشرى، مما يجعل جميع الشعوب تتخلى عن موروثها ونماذجها وتتبناه كلية. كذلك فإن تنافس أو صراع الحضارات أمر منطقي تفرضه طبيعة الوجود البشرى ومعطياته.

المحور الخامس: التراث الإسلامي والإنساني:

في هذا الصدد يشير العلواني إلى أن التراث ليس فكرًا متجاوزًا للزمان والمكان، وإنما هو فكر نسبى مقيد محدد بحدود الزمان والمكان الذي وجد فيه، ولكنه كأي فكر إنساني، نسبى في الزمان والمكان والإنسان وفى ضوء هذا التحديد المفاهيمي والتصوري يرى أنه لا عصمة للتراث حتى وإن كان معتمدًا أو منطلقًا من الوحي إذ أنه لا يعدو - أي التراث - أن يكون أفكارًا ومعالجات وتفسيرات لواقع متغير، يجب أن نبحث عن تحقيق أهداف محددة من وراء فهمه، وإعادة اكتشافه.

(١٣) الخطاب والمخاطب:

يسعى المؤلف في هذا القسم الأخير من الكتاب إلى تصنيف أنماط المخاطبين في الواقع الإسلامي، وذلك بغرض وضع إطار محدد للخطاب الذي ينبغي أن يوجه إليهم انطلاقًا مما أشار إليه - المؤلف - في مدخل الكتاب بأنه «من أهم شروط تحقيق الفاعلية والتأثير في أي نشاط إسلامي فهم المسلم المخاطَب لمحتوى الخِطاب الموجه إليه وطبيعته فهمًا دقيقًا. بمعنى وضوح فكرة الخطاب لديه بمنطلقاتها وأهدافها، وتفهمه لمدى قابليتها للتنفيذ» .

ثم يطرح - المؤلف - تصنيفًا يرى أنه يمثل القسط الكبير من الجمهور المخاطَب في الواقع الإسلامي وهم:

- الرسميون.

- اللادينيون.
- أعضاء الحركات الإسلامية.
- خريجو الجامعات والمدارس الدينية.
- أصحاب التسطيح.
- أصحاب التوفيق والتلفيق.
- العوام.
- الطالب الجامعي.
- الإطار الأكاديمي «الباحث والأستاذ الجامعي».

ويتحدد برنامج «الخطاب والمخاطب» الذي قدمه المؤلف في قسمين الأول يتعلق بالمخاطب ويتضمن: مواصفاته، أسباب بزوغه، موقفه من القضية «إسلامية المعرفة»، علامات التواصل معه، والقسم الثاني: يتعلق بالخطاب ويتضمن شكل الخطاب، وأهداف الخطاب.

(١٤) عقبات ومعوقات:

يختتم المؤلف هذا الكتاب بالتحذير من جملة من الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها العاملون في الحقل الإسلامي والتي تؤثر بالسلب على الحركة الذاتية والجماعية معاً حيث اعتبرها «عقبات ومعوقات» ومن هذه الأخطاء:

١ - التوقف عن الإنجاز وعدم مواصلة العمل قبل إيجاد الوعي الضروري لدى الأمة بالقضية، وبناء مجموعة كافية من الكوادر لإنجاز المراحل الضرورية، وتوفير المادة اللازمة لمساق دراسي ناجح على مستوى الجامعات والمعاهد ودور العلم، ومواد موازية لقنوات الإعلام الأخرى باعتبارها وسيلة توصيل مهمة، وإعداد المحاضن من جامعات ومعاهد ومراكز وجمعيات علمية تتبنى القضية وتحتضنها، وتعمل على إنجاحها.

٢- التوقف عن التقويم والمراجعة والنقد الذاتي المستمر لمسيرتنا علميًا وعمليًا، بشكل يضمن التصحيح والتسديد المستمرين.

٣- الأحادية واعتبار أن ما نقدمه - وحده - هو العلاج الشافي لكل أمراض الأمة وسائر أزماتها، وتجاهل الجوانب الأخرى.

٤- التحزب والتكتل والاستجابة لعملية الاستقطاب، وهو خطأ يمكن أن يجهض القضية كلها، ويعزلها عن سائر فصائل الأمة.

٥- اختلاف الأطروحات في مجال مبادئ القضية ومقاصدها من جانب القائمين عليها، وهو أمر يجب الوعي به وبحقيقته وحدوده. ذلك لأن الأطروحات المتنوعة في هذه المجالات، قد تعني عدم وضوح الفكرة بالشكل الكافي لدى أصحابها. وإذا كان تنوع الخطط قد ينشأ عن تنوع تخصصات القائمين على القضية وأجهزتها إلى حد ما، فإن اختلاف المبادئ والمقاصد لا ينبغي أن يقع مهما اختلفت ثقافات المتناولين لهذه القضية والعاملين لها، أو تنوعت طرائق تناولهم لجوانبها. فعلينا أن نرسي بعض التقاليد في هذا المجال ليكون بيننا على الدوام حوار مستمر في هذه القضايا، يساعد على بلورة الأفكار وتوحيد التصورات مع بناء الرؤية الواحدة في المبادئ والمقاصد، كما أن علينا - على الدوام - أن نذكر أنفسنا بأن قواعد قضيتنا هي:

- أن نجعل الوحي والوجود مصدرين أساسيين للفكر والثقافة والمعرفة والحضارة.

- أن ننظر في التراث الإسلامي وفي التراث الإنساني المعاصر، وفي المجالات الاجتماعية والإنسانية، نظرة ناقدة فاحصة لتمييز الإيجابي من السلبي، والنافع من الضار، والمتفق مع التصور الإسلامي والمنهجية المعرفية القرآنية، والمناقض لهما، وجمع الإيجابي والنافع وفق منهاجية سليمة، وتوضيح الغامض، وتصحيح الخاطئ، لتكون هذه الخصلة هي المحتوى الثقافي والفني، الذي يمكن أن يشكل عقلية الأمة ونفسيتها بالشكل الإسلامي المطلوب، الذي يحقق النهضة ويحدث العمران.